إقليمية اللهجات العامية أكبر حجة على عدم صلاحيتها

الأستاذ إلياس زنتيس

الجامعة الحرة (امستردام)

كثر الكلام والجدال في الآونة الاخيرة حول اللغة الفصحى واللغة العامية وكيف يمكن الوصول الى اتفاق بينهما والفارق البعيد في الكتابة والتخاطب بينهما ودعا بعضهم الى التأليف في اللغة العامية لسهولتها وتعبيرها عن افكار العامة بابسط طريقة وطرح اللغة الفصحى جانبا لصعوبتها للذين لم يتعلموا هذه اللغة في المدارس ولتعقيدها كما يقولون . كما دعا بعضهم الى الكتابة بالاحرف اللاتينية اسوة بالاتراك. ودعم بعضهم حجتة بأقوال بعض الاجانب الذين يتعلمون اللغة العربية في اوروبا على الطريقة الفصحى فاذا قدموا الى بعض الاقطار العربية صعب عليهم التفاهم والتخاطب مع عامة الناس فيها .

ولعمري ان الموضوع ذو اهمية كبيرة ليس في البحث عن اي من الطريقتين يجب أن نتبع ، بل ان اهمية الموضوع كامنة في ان نحسم الجدال فيه ونقلل من الكلام حوله حتى لا يتشعب الراي وحتى لا يتسلل ادنى شك في لغتنا الفصحى يدعو الى وصفها او يرميها بالعقم وعدم مجاراتها لروح العصر وعجزها عن مجاراة اللغات الاخرى في العلوم والفنون . ولذلك ارى أن لا تترك مجامعنا اللغوية هذه الفكرة تنمو في عقول الناس بفتح باب الجدل والنقاش حول هذا الموضوع الى ما لا نهاية له.

اين توجد اللغة العامية ؟

ان البلاد العربية اقطار شاسعة واسعة تمتد من المحيط الى المخيط . فهي ليست قطرا واحدا حتى يكون له لغة عامية واحدة . وحتى في القطر الواحد توجد فيه عدة لهجات . فالصعيد المصري له لغة عامية غير التي في البحري وكذلك السوري ترى فيه فارقا بين لهجة دمشق ولهجة حلب مثلا . حتى في فلسطين القطر الصغير يوجد فرق بين لهجة غزة ولهجة حيفا والجليل .

فما بالك بأقطار متعددة متباعدة جاورت وخالطت مع الزمن شعوبا متعددة، ومن هذا الاختلاط تولدت فيها لهجات ودخلت فيها كلمات خاصة بذلك القطر لقربه من احد الشعوب التي تجاور حدوده . فالعراق الذي يجاوره الترك والفرس والقوقاز له لغة عامية غير التي في الشام او مصر او غيرها وكذلك المغرب وشمال افريقيا له لغة عامية لا تفهم تماما في باقي الاقطار العربية . فاي من هذه اللهجات هي اللغة العامية التي نريد ان نتخذها اداة للتفاهم كما يقول البعض . فالدكتور انيس فريحة يريد أن يكتب باللغة العامية اللبنانية وهو لا يقدر أن يكتب بغيرها . والاستاذ محمد تيمور يعنى باللغة العامية المصرية والفرق بينهما كبير . واذا قام كل قطر يكتب بلغته العامية ففي ذلك لعمري بلبلة واي بلبلة ونحر اللغة العربية بيد اصحابها وابنائها .

وقد احسن عميد الادب العربي الدكتور طه حسين الرد على فكرة اتخاذ اللغة العامية اذ قال :

« احب ان الفت نظر ادبائنا الذين يطالبون بالالتجاء الى اللهجات العامية الى شيء خطير ما ارى انهم قد فكروا فيه فاحسنوا التفكير . هو ان العالم العربي الآن ، وكثيرا من اهل العالم الشرقي كله يفهم العربية الفصحى ويتخذها وسيلة للتعبير عن ذات نفسه وللتواصل الصحيح القوي بين اقطاره المتباعدة فلنحذر أن نشجع الكتابة باللهجات العامية فيمعن كل قطر في لهجته وتمعن هذه اللهجات في التباعد والتدابر ، ويأتي يوم يحتاج فيه المصري الى ان

يترجم الى لهجته كتب السوريين واللبنانيين والعراقيين ويحتاج اهل سوريا ولبنان والعراق الى مثل ما يحتاج اليه المصريون من ترجمة الكتب المصرية الى لهجاتهم كما يترجم الفرنسيون عن الايطاليين والاسبانيين وكما يترجم هؤلاء عن الفرنسيين .

ولنسأل انفسنا آخر الامر أيهما خير ان تكون للعالم العربي كله لغة واحدة هي اللغة الفصحى يفهمها أهل مراكش كما يفهمها اهل العراق ، ام أن تكون لهذا العالم لغات بعدد الاقطار التي تتألف منها ، وان يترجم بعض عن بعض ؟ اما أنا فأوثر وحدة اللغةهذه فهيخليقة بأن يجاهدفى سبيلها المؤمنون بها وبأن يضحوا فى سبيلها بكل ما يملكون .. »

هذا هو رد زعيم الادب العربي ولعمري انه أحسن رد على الداعين لاتخاذ اللغة العامية .

ما هي اللغة العامية ؟

كانت اللغة فى الجزيرة العربية لغة فصحى رغم تعدد اللهجات التي كانت فى المناطق المتعددة من الجزيرة وكانت أرقاها لغة الحجاز ونجد . وبما أن الحجاز كان ممرا للتجارة وكانت مكة مكانا للحج فقد كانت قريش أقوى البطون العربية واكثرها نفوذا من اثر التجارة والحج فقد غلبت لهجتها على غيرها من اللهجات . فلما جاء الاسلام نمت لها واصبحت لهجتها هي العليا وصارت لسان النبوة والملك والعلم والفصاحة . فلما خرج العرب من جزيرتهم وعاشروا غيرهم من الشعوب فى الممالك التي اخضعوها لسلطانهم خافوا على لغتهم من التحريف واللحن . ولما جاء أحدهم الى زياد بن أبيه والي العراق وقال له : « اصلح الله الامير ، توفي ابانا وترك بنون » اوعز الامير الى ابي الاسود الدؤلي ان يضع للناس ما يقيمون به كلامهم فقام بوضع علم النحو . واخذت الغيرة غيره من العلماء فوضعوا ما اشكل من ابواب اللغة . وهكذا اصبحت اللغة ذات قواعد ثابتة وكثرت المؤلفات فى مختلف علوم اللغة والبلاغة وكثر الشعراء واصحاب الرسائل فأمدوا اللغة بكنوز وافرة من بنات افكارهم وقام الائمة فى جمع الاحاديث النبوية وكتبوا التفاسير ووضعوا الفقه . وقام التراجمة بنقل العلوم عن اليونان والهنود وغيرهم ، وهكذا مع الزمن صار للعربية رصيد عظيم فى العلوم والآداب لم يكن لامة من الامم واصبحت خزائن الكتب فى العالم تمتلك مئات بل آلاف المؤلفات العربية فى شتى العلوم والادب .

فماذا نعمل بهذا الميراث العظيم وهل نقطع صلتنا به ونتخذ العامية لغة لنا ؟

واذا اخذنا باللغة العامية ودرجنا عليها وادخلناها مناهج التدريس بدل اللغة الفصحى ثم أراد الواحد منا ان يدرس مناهج دينه فى القرآن والحديث والفقه او دراسة الادب العربي والبحث فيه وجد ذلك من اصعب الامور واضطر ان يدرس لغة غير التي درسها وتعود عليها . ان الاخذ باللغة العامية سوف يبعدنا عن فهم الادب العربي قبل الاسلام وبعده ويضيع منا تراث ضخم تحسدنا عليه جميع الامم .

وقد قام احد الذين ينادون بالعامية الى استخلاص الاحكام التالية ، قال :

1) ان اكثر الالفاظ العامية عربية اصابها التحريف فى النطق للتخفيف والتيسير

والرد على هذا الحكم هو ان المتعلم الذي اعتاد النطق السليم لا يسعى لان يحرفه حتى لا يشذ وقعه فىاذنه .

2) ان اسلوب العامية قد استقر على صورة تعودها الناس وهو يختلف عن الاسلوب العربي الصحيح .

والرد على ذلك ان اسلوب الفصحى قد استقر على صورة وضعها علماء اللغة بعد البحث والاستقراء وان اسلوب العامية له صور متعددة بتعدد الاقطار العربية وهو يختلف عن الاسلوب العربي العامي .

3) ان العامية لا تزال تتطور ، وهذا التطور ناشىء عن حياة الناس ، فهي وليدة الحياة نفسها وفيها من المرونة ما فى الكائن الحي .

الجواب ان العامية تتطور وهذا التطور ناشىء عن الجهل بالثقافة والتعليم فهي وليدة الجهل بلا جدال ومرونتها لا تعادل مرونة الفصحى .

4) ان العامية ليست مسخا مجردا عن الفصحى وانما هي لغة قائمة بنفسها لها قواعدها واصولها فاذا شذ عنها فكأنه خرج عن طريقة مقررة .

الجواب ان العامية مسخ وتحريف عن الفصحى كما اعترف فى الحكم الاول وهي ليست لغة قائمة بنفسها بل لغات متعددة بتعدد الاقطار وكل قطر له قواعد واصول غير التي فى القطر الاخر وليست لها طريقة مقررة الا فى القطر الواحد وهذه الطريقة

تعتبر شذوذا في باقي الاقطار وهنا نعود الى السؤال المهم وهو اي لغة عامية من لغات الاقطار المتعددة يعنـي ؟

هذا ولو اردنا ان نرد على الداعين الى اللغـة العامية لندحض مزاعمهم لاحتجنا الى وقت طويـل او الى كتاب كبير ، وان الذين يناصرون العامية يفكر كل منهم في لغته او بالاحرى في لهجته التي درج عليها مع العلم انها لا توافق لهجة اخوانه في الاقطار الاخرى وجاء لاحدهم في كتاب « نحو عربية ميسرة » الفقـرة التاليـة :

« .. انك لا تستطيع ان تقول بالفصحى مـا تقوله بالعامية ، واذا نقلته الى الفصحـى اتى جافا قاسيا خلوا من العنصر الانساني اللطيف في اللغـة . تصور على المسرح فلاحا يتكلم الفصحى او سكيرا يتكلم الفصحى أو خادمة تخاطب سيدتها بالفصحى ، او نجيب حنكش يقص اقاصيصه الزحلاوية البرازيلية بلغة الزمخشري ، وسعيد فريحة في نكات يقصها بالفصحـى أو المجلات المصرية تنقل كلام ابن البلـد الى اللغـة الفصحـى ...»

ان الكاتب يتجنى على اللغة العربية وهي براء منه وما كان منه ان ينكر افضال اللغة العربية بـل وامجادها في الحياة الفكرية الانسانية وانها عبـرت ولا تزال تعبر عن الحياة بحلاوتها ومرارتها ولينهـا وشدتها ، وان كتبها الادبية من نثر وشعر فيها مـن التعابير التي يهتز لها القلب فرحا من حلاوتها ويهطل لها الدمع من مرارتها وان العربية لم تدع بابا مـن ابواب الحياة الا ولجته وعبرت عنه احسن التعبيـر لينه وشدتـه .

اما تصوره فلاحا على المسرح يتكلم الفصحـى او سكيرا او خادمة تخاطب سيدتها بالفصحـى فهذا كله لاننا اعتدنا ان نعرف ان فلاحنا الجاهل او خادمتنا او غيرهما من عامة الناس قد حرموا من الثقافـة وعاشوا القرون الطوال في جهل وتأخر والتعليم لـم يصقل حديثهم ولذلك فقد تعودنا ان نسمع فلاحنـا يتكلم بلغته البعيدة عن اصل اللغة لانه لم يتعلـم اللغة فيخرج الفاظا اصطلح عليها هـو وآبـاؤه في بيئته لاداء المعنى المطلوب . ومع ان فلاحي اوروبا لهم لهجة غير التي في المدن غير أن الفلاح الاوروبي اذا اراد ان يتكلم مع مثقف أو رئيس دائرة من سكـان المدن فانه يقدر ان يتكلم بلغته المثقفة .

اما اذا قص نجيب حنكش احاديثه الزحلاوية ، وهي لبنانية اللهجـة ، على مسمـع من عراقي او مراكشي او يمني ، فانهم سوف لا يفقهون منها شيئا وسوف لا يطربون لها لانها ليست من المصطلح الـذي اعتـادوه وكذلك قل عن سعيـد فريحة اللبنانـي او ابـن البلـد المصري .

فمما لا ريب فيه ان اللغة العامية تمتد حيـن يصيب التعليم جزر . اي ان اللغة العامية وصلت الى هذا الفرق بينها وبين الفصحـى بعد ان انحصـر التعليم في الاقطار العربية وقلت المـدارس وسـاد الجهل وقلت الفئة المتعلمة . وان عصور التخلـف التي تتابعت على الاقطار العربية وهي ترزح تحـت نير اجنبي او نير سلطة محلية لا تهتم لصالح شعوبها خلقت في هذه الاقطار اكثرية امية جاهلة لم يصقلهـا التعليم وابتعدت عن اصول اللغة ومصطلحاتهـا تجهلها بها ، فانكبت على لغتها العامية لتستعيـض بها عما هي فيه من النقص ومع توالي الاجيال كثـر البعد بينها وبين الفصحـى الـى ان صارت كمـا هي عليه اليوم . الا ان لهذه العلة دواء ، فـاذا احسنا استعمال هذا الدواء ، ـ وهو احسن دواء ـ فاننا نتمكن به اولا من الحفاظ على لغتنا من الانقراض وثانيا على امة العرب من الفوضى التي سوف تنشأ اذا اخذ كل قطر يكتب بلغته العامية ، واعوذ بها من فوضى وليتذكر الذين يهتمون بهذه المسألة ان الورد لا يجنى بدون وخز شوكه والعسل بدون وخز ابره . وليتذكر الذين يهتمون بذلك اننـا سوف لا نجنـي ثمارها يانعة في وقت قصيـر ولكن سوف نجنـي ثمارها بعد جيل او جيلين من الزمن وهي ليسـت حقبة طويلة بالنسبة للتاريخ واعني هنا اننا سـوف نجني ثمارهـا مع الجيل القادم وثمارا احسن مـع الجيـل القـادم ان شاء الله . مع اننا اذا اتبعنـا الطريقة العامية فسوف لا نجني اية ثمار سـوى ضياع اللغة وسوي الفوضى من زعم كل قطـر ان لغته العامية هي المثلـى .

ان الدواء الوحيد لانقاذنا من الفوضى وانقاذ لغة الضاد من الانقراض هو التعليـم ، والتعليم فقط . فاذا اتبعنا طرق التعليم بالمعنى المعروف اي التعليـم الاجباري مع وضع برامج خاصة لمحاربة العاميـة وتقريب الثقافة الى كافة الجماهير مـن فلاحيـن وحضر فاننا نستطيع بعد جيل او جيلين ، تقويـم المعوج من السنة العرب المعوجة وجعل الفـلاح والخادمة وسواهما يقدرون على التفاهـم والتخاطب

بالفصحى بعد أن يكون قد شملهم نظام التعليم واخذوا قسطهم من الثقافة ، وعندئذ اذا قدم احد الاوروبيين الى اي بلد من بلاد العرب فانه سوف يرى ان كل الامة رجالها ونساءها يتكلمون او يقدرون على المخاطبة بالفصحى فيفهمونه ويفهمهم .

وبالختام اضع هنا بعض الحلول للخروج من هذه المشكلة راجيا ان تلاقي من اولي الامر بعض الاهتمام :

اولا : العمل على تسهيل قواعد اللغة وعقد مؤتمرات من اللغويين لوضع نظام جديد لدراسة اللغة وتبسيط النحو .

ثانيا : توحيد التعليم الخاص باللغة العربية مع وضع كتب خاصة موحدة للنحو والتاريخ والعلوم يقوم بوضعها نخبة من المعلمين او المؤلفين من جميع الاقطار وتدرس في جميع الاقطار وبذلك تتوحد الافكار عند الصغار حتى اذا صاروا رجالا في المستقبل كانت مناهج التعليم والكتب الموحدة قد وحدت من افكارهم وذهبت بالعصبية وقللت من البعد بينهم .

ثالثا : وضع نظام في المدارس في جميع الاقطار يحض الطلبة على التخاطب بالفصحى ما امكن واقامة حلقات خطابية ومحاربة او تقليل التكلم بالعامية مع افهام الطلبة فائدة ذلك لهم ولبلادهم .

رابعا : عقد مؤتمرات لغوية يحضرها ممثلون عن جميع الاقطار العربية لوضع مصطلحات لتوحيد اسماء الاشياء المختلف في الاصطلاح عليها في بعض الاقطار من عامية او فصحى .

خامسا : كل البحوث الخاصة باللغة العربية يجب أن يعود البت فيها الى مجامع اللغة لا الى افراد .